# البُعد الوجداني في شعر الشيخ ولد بلعمش "الرثاء العائلي أنموذجا"

**علي مصطفى لَوَنْ**

**باحث دكتوراه في الأدب والنقد، جامعة الأزهر الشريف**

**ومدرس لغة الهَوْسَا بمعهد أفريقيا بالشارقة،**

**نيجيريُّ الجنسية**

a.princeofpoets@yahoo.com

**الملخص**

تنطلقُ هذه الورقةُ من البعد الوجداني لتتناول موضوع الرثاء العائلي في شعر الشيخ ولد بلعمش، حيثُ يُعدُّ الرثاء أحدَ أهم الموضوعات التي لها ارتباطٌ وثيق بالبعد الوجداني. وقد قسمت الورقة إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة. تحدثتُ في المقدمة عن أهمية الموضوع ونبذة تعريفية عن الشاعر. أما المبحث الأول، فقد تناول رثاء الوالد مسلطاً الضوء على الأثر العميق الذي تركهُ هذا الفقد على الشاعر، وكيف عبَّرَ عن مشاعره الحزينة من خلال قصائده. ويعالج المبحثُ الثاني رثاء ابن العم، موضحاً عمق العلاقة بين الشاعر وابن عمه، وكيف تجسد رحيله الحزين في تجربته الشعرية. وفي المبحث الأخير، تناولت رثاء ابنة عم الشاعر، مستعرضاً كيف صوَّرَ حزنه الشديدَ على رحيلها بأسلوبٍ شِعريٍّ دقيق. وتختتم الورقة بتقديم النتائج التي توصلتْ إليها الدراسة، مع توثيق شامل لأهم المصادر والمراجع التي تم الاعتمادُ عليها.

**أهداف البحث والأسئلة التي ستجيب عليها الورقةُ:**

- الوقوف على شاعرية ولد بلعمش والكشف عن عبقريتة الإبداعية.
- الوقوف على العلاقة الأسرية الطيبة التي تربط بينه وبين عئلته من خلال شواهد من شعره.

**منهج البحث:**

سيكون المنهج الوصفي التحليلي عِمَادَنَا لمعالجة موضوع هذه الورقة.

**أدوات البحث:**

شعر الشيخ ولد بلعمش.

**كيفية التحليل:**

سيُوردُ الباحثُ الشواهدَ الشعرية ويقوم بتحليلها تحليلًا أدبيا للوصول لتحقيق أهداف البحث والوصول إلى نتائجه.

## التعريف بالشاعر وثراثه الأدبي

**أولا: فجرُ الميلاد:**

وُلِدَ الشاعرُ في الصيف سنة 1973، في قرية تسمى اَمْحَرِيث، وهي وادٍ مشهور بولاية آطار، وتقعُ هذه القرية في الجنوب الغربي لمدينة شنقيط التابعة إداريا لمقاطعة أُوْجِفْت.

**ثانيا: مهدُ النشأة:**

نشأ الشاعرُ في عائلة ذاتِ جذورٍ شنقيطية، يقصدها الناسُ لكي يوثِّقُوا عندها بيوعاتِها ومعاملاتها، وكانت العائلة تتصدى لفضِّ نزاعات الناس بشكل ودّي وأخوي. كان جده نظاما، وكانت جدته ضليعةً بالسيرة النبوية، لقد أفاق الطفلُ على والده الذي احترفَ التوثيق وانخراط في السلك القضائي وراثةً عن أبيه، ومع أن الوالد من حفظة بعض المتون الفقهية وذي حظ كبير من العلم، إلا أن طبيعة عمله وبساطته مع الناس وتواضعه، جعل ولده يندمجُ مع أهالي القرية كلها، وكأنه واحد منهم، فالحياة في هذه القرية لها مذاقُها الخاص، والناس فيها بسطاء، يتحدثون مع بعضهم في حب وتواد.

**ثالثا: مكانته الشعرية في عيون النقاد والشعراء:**

يعد الشيخُ ولد بلعمش من أكبر وأبرز شعراء موريتانيا المعاصرين، ويُصنَّفُ في طليعة الجيل المجدد للقصيدة الموريتانية الحديثة، وقد حجز له مكانةً مرموقة في الساحة الأدبية المحلية والعربية بكل جدارة واستحقاق، وذلك بسبب قصائده التي أبهرت القراء والنقاد.

يقول عنه الشيخ خليل النحوي: "الشيخ ولد بلَّعمش شخصيةٌ متعددة الأبعاد ليس شاعرا فقط، ولكنه علَمٌ في الشعر، تصدُق عليه كلمة شاعر وإنسان ومناضل، شاعريته ليست محل نقاش، حصد المراكز الأولى لبلده، ورفع صيت وطنه وأمته في المنابر الشعرية الكبرى، وهذا أمر معلوم، ولعله لم يحظ بما يستحقه من العناية في هذا الباب، الشيخ كان شاعرًا من نوع خاص".

ويقول عنه الدكتور صلاح فضل: "هو شاعر متمكن وباهر وقوي، في شعره حلاوة في الإيقاع العذب والخيال المجَنَّح، ويغلب عليه الصدقُ الجميل".

ويقولُ عنه الدكتور عبد الملك مرتاض: "إنه دافق الشعرية، موهوب طافح الموهبة، يخافه الشعر فيذلُّ له وينقاد قيادة".

ويقول عنه الشاعر الشيخ ولد الطالب: "الشيخ شاعرٌ مبدع فياض، حاضر البديهة ومحترف، وإذا صدق أن نطلق لقب الاحتراف على شاعر موريتاني فهو الشيخ ولد بلعمش".

## الرثاء في ظلال البعد الوجداني

إن القصيدةَ الوجدانية في كل تجاربها ليست إلا ترجمةً للانفعال الشعوري الصادر عن معايشة إحساسٍ صادق يعبر عن شخصية الشاعر وعواطفه الخاصة، وقد تعددت موضوعاتُ هذه القصيدةُ التي لا يخلو منها ديوان شاعر، ويُعَدُّ الرثاء من أهم هذه الموضوعات بسبب علاقته الوطيدة بالوجدان إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الآخرة منذ القدم.

ويتبين لنا أن في الشعر العربي ألوانًا كثيرة من شعر الرثاء، اشتملت على رثاء الدول والمدن، والأبناء والآباء، والزوجات والأقارب، والأصدقاء والأمراء، والعلماء والأدباء، إلى غير ذلك.

وأثناء رصدنا للتجارب الوجدانية في شعر الشيخ ولد بلعمش، وجدنا أن للرثاء حضورا كثيفًا في شعره، مما جعله يطغى على غيره من الموضوعات الوجدانية، فقد رثى أشخاصا أعزاء على قلبه بقصائد رائعة، وراح يسكب من الدموع أحرها، ومن المشاعر أصفاها، ومن العبرات أشدها وقعا وأبلغها دما.

## المبحث الأول:

## رثاء الوالد

"لقد عبر الشعراءُ عن مشاعرهم الرقيقة وأحاسيسهم الفياضة، فبكوا من رحل عنهم من ولدٍ وأب وزوجة وصديق وعالم أو ملك، معبّرين عن حجم الكارثة التي حلت بهم نتيجة هذا الرحيل القسري، فالموت لا يُبقي على أحد، وسيبقى الإنسان يبكي موتاه مُظهرًا حزنه على أخيه في الإنسانية والمصير الذي سيؤول إليه، بل يصور" "حزنه على نفسه، فالقصة واحدة، وكل يوم يسقط فصلٌ من فصولها، ومن يبكي اليوم غيرَه

يصبح بعد قليل من الزمن محمولًا إلى نفس المصير" .

إنَّ للآباء في حياة الإنسان دورًا عظيمًا ومكانةً لا تُضاهى، فإذا تخطفتهم أيادي المنون، فقد الأبناء رحمة الوالدين وعطفهم، وتجلَّت مرارة الفقد في قلوبهم مصحوبة بألم لا يُداويه إلا ذكرياتِ الأيام الجميلة، واشتياق تضطرم نيرانُه على مر الأيام وكرِّ الأعوام، ولذلك "يرثي الشاعر أباه ويعلن حزنه وأساه لفقده هذا الأب الفقيد الذي أورثه السهر وعدمَ الراحة وخلَّفَ حزنا دفينًا بين حشاياه وترائبه".

وشاعرنا الشيخ بلعمش واحد من الشعراء الذين رثوا آبائهم؛ حيث آلمه فقد والده وأوجعه فراقه، فكتب له قصائد الرثاء، يبين فيها مشاعر الحزن ومرارة الفقد، ومن نماذج ذلك في شعره قصيدة "أبي" التي يقول فيها: [الطويل]

**أبي هاتِ بعضَ الصـــبر واحنُ مَلِيًّا فريحُ الليالـــي يَبَّسَـــــت شفتيًّا**
**أسير إلى المجهول... كل قصـيدة إلى رَدْهةٍ في الروح تُوغلُ فيَّـــا**
**لأُصبحَ مَنْ حُزنا على نفسه جنـى مَعَاذ فـــؤادي مـــا جنيتُ عليًّا**
**كبرتُ وفي الأعماق طـفلٌ يشدُّنِي إلـــيكَ فـــأبكي ضـارعا بِيَديـــا**
**وها أنا أشكوكَ الزمانَ فـــمن تُرَى يجِـيزُ ابنتيَّ العُـــمرَ أو ولديَّا؟!**

نلاحظ أن العنوان هنا "أبي" تقليدي صرفٌ، لا تحوم عليه ظلال الشعرية، وهو يتطابق مع فكرة هذه "القصيدة بصراحةٍ ووضوح، والقارئ فيه يكاد يعرف مضمونها قبل قراءتها والدخول إلى عالمها، وغالب أشكاله التي يرد فيها أن يتضمن اسم الشخصية المرثية سواء كانت إنسانا أو مدينة أو معلِّما أو غير ذلك" .

وتتصدر البيتَ الأول كلمة "أبي" التي اتخذها الشاعر عنوانا لقصيدته ليؤكد لنا الصلة القوية التي تربطه بوالده، فهو يشتاق إلى رعايته ويتوق إلى حنانه، لذلك يناديه "أبي"، وكأنه لا يزال على قيد الحياة، ونلاحظ أن هذا النداء ينم عن التحسر والتوجع، فبعد مرور سنوات طويلة، تهيجُ ذكرى وفاة هذا الرجل الذي كان السند الأكبر له في حياته، فتتجدد معالم الأسى في قلبه وكأن فقده حدث توا، فهو "فاقد الصبر كما يقول في الشطر الأول "هات بعض الصبر"، "ولا سيما أن اللقاء بوالده متعذر ".

وفي الشطر الثاني، تطالعنا صورة فنيةٌ تأسر الألباب، وهي تعكس الحالة البائسة التي عايشها

بلعمش، رامزا إليها بقوله "فريح الليالي يبَّستْ شفتيًا" مما يدل على الأجواء القاسية التي عانى منها، والتي جعلت من شفاهه/روحه صحراءَ قاحلةً تنتظرُ بفارغ الصبر وصول الأمل الذي يحييها، والسحابِ الذي يُنعشها بزخات المطر.

ويتكئ الشاعر على ضمير الأنا في قوله "أسير" "أعرف" "أصبح" كبرتُ "أبكي" "أشكو" ليصور لنا الألم الذي يعتصر قلبه، "فهذه الكلمات تجعل أدغال الحزن تورق في القلب من جراء ما تحمله من شحنة عاطفية قوية "، ونلاحظ كيف يعبر عنها بصيغة المضارع؛ ليدل على أن ما اعتراه ليست حالة تأتي وتزول، وإنما هي حالة تتجد معه في كل زمان ومكان.

ويجسد البيت الثاني الاضطراب الشعوري الذي أصيب به بعد رحيل والده، ففي الشطر الأول منه جعل نفسه يسير في المتاهات ثم يفاجئنا بصورة مقلوبة في آخر الشطر حين يقول "إلى ردهة في الروح تُوغل فيا"، وهذا في نظرنا ما جعله "يدور في حلقه مفرغة من المشاعر التي لا تهدأ، فالابن مهما بلغ من القوة والجاه والنفوذ يعيش موقفا نفسيا صعبا، ففي داخله–سواء يسير إلى المتاهة أو أن المتاهة هي التي تسير فيه– صوت ضعيفٌ صارخ يهفو إلى قلبٍ كبير يحنو عليه ويسنده في شدته، من هنا يكون صعبا على الابن فقدان هذا الهرم الكبير الذي يتكئ عليه كلما عضَّه الزمن بنابه وتقاذفته عواصف الأيام"

وفي البيت الرابع يبلغ به الحزن أقصاه، فيتحول إلى طفل حزين يبكي اشتياقا إلى والده الذي فقد حبه وعطفه وحنانه، "إنه ذلك الإحساس بالوحدة وبأنه مخلوعٌ من كل شيئ بعد موت أبيه، فبلعمش يفقد تلك القوة المعنوية التي كان يعتز بها ويمتلك بها القدرة على الحياة كما يشاء، ومِن صور هذه القوة الخفية إحساسه بالعزة والحماية بوجود أبيه".

وفي البيت الخامس، اختار الشاعر في رحلته البكائية طريق الشكوى، كالشجرة العارية تتأوه تحت وطأة الرياح العاتية، حيث يعتصر قلبَه الحزن، وتتأجج أحاسيسه بالغياب والفقد، فيتساءل بحنين عميق عمن سيهتم بأبنائه الذين هم ثمارٌ تدلت من شجرة أبيه، فهم أحفاده الذين يحملون دماءه، وهذا البيت يرسخ لنا مدى الترابط الأسري المتجذر في عروق عائلته، ويؤكد على حجم المسؤولية الثقيلة التي كان والدُه الراحل يحملها على عاتقه، والعناية الفائقة التي يُضفي ظلالها على أبنائه وأحفاده.

وينتقل بلعمش إلى الحديث عن جانب من حياة والده واصفا الألم الذي يعتصرُ قلبه حيث يقول:

[الطويل]

**أبي سُـورُ القرآن منكَ نـــديَّـــةٌ فعانقِ بـــها قلـــبي لتـــدركَ شيا**

**لقد ظمئتْ روحي إليكَ فهـــل غـــدٌ يُقرّبُ عذبَ الممـــــطرات إلـــيا**

**أسافرُ في دنيا الدموع مُعانـــــدا بها الشوكَ حتى مزَّقتْ قدميـــــا**

**لعـــل بِســفر الخالدين بقيـــةٌ فأرسمُ غصـــنا مُورقًـــا لِبَنِـيَّـا**

**أداوي جراحَ النازفين ولـــــو دروا بجُرحـي لداوُوا جُـــرحـــيَ الأبـديا**

في البيت الأول، يلوح الشاعر من ضفاف مرثيّته ويرتمى على شاطئ الثناء، فتتراقص كلماته على أوتار الحنين والذكريات، ليقول لوالده لا تبتعد عنّي، عانق قلبي التائه بصدرك المعمر بتلاوة القرآن الكريم، تلك الكلمات التي ترتاح لها نفوسنا، وتهدأ بها أرواحنا، فكن يا أبي دليلاً لي في هذه الحياة، وعنوانًا للحنان والرحمة، فعناقك وتلاوتك يخففان وطأة الألم ويطفئان لهيب الحزن الذي يشتعل في داخلي، فكن أنت وكلمات الله مصدر قوتي وسروري.

وفي البيت الثاني يسكن الظمأ ورح بلعمش ويحتل الجفاف قلبه، فكلما فكر في والده تزاحمت على قلبه أمواج الحنين والشوق كالصحارى العطشى تبحث عن قطرات المطر الندية، وقد أبدع حين لجأ إلى المطابقة بين "الظمأ" الذي يرمز به إلى الاشتياق وبين "الممطرات" الذي يرمز بها إلى اللقاء ليبين مدى اشتياقه إلى والده والعذاب النفسي الذي يعيشه في انتظار هذا اللقاء المرتقب.

وقد سقط الشاعر– من خلال الاتكاء على الاستفهام في قوله "هل غد "– إلى هوّة ما كان يتمنى السقوط فيها، فبينما يأمل في رؤية والده التي يريد لها أن تتحقق، يسقط في فخ الاستفهام، فتفتضحُ لنا شكوكُه الداخلية التي تشي بأن اللقاء المنشود ربما لا يكون إلا خيالًا مؤلمًا؛ لأن جملة" هل غدٌ" ليست إلا "خارجةً من كبد مجروحة، ذاقت الويلات"، ورغم ذلك، يظلُّ الحنين والاشتياق يُنيران دروب الرحيل بين أضلع الظمأ، في انتظار يومٍ قد يأتي، حيث يلتقي سراب الأمل بحقيقة اللقاء.

وبعد أن انحسرت أمواج الاشتياق، أدرك الشاعر بأن الوقت قد حان ليحزم حقائبه وينطلق في رحلةٍ

جديدة، لكنها هذه المرة ليست رحلةً إلى أرض الأحلام والتطلعات، بل رحلة إلى الدموع، أعلن عنها باستخدام خارقٌ للغة، وتوظيفٌ عبقريٌ للدالات، حيث يقول "أسافر في دنيا الدموع"، فهذا السفر لم يكن مجرد تحركٍ بدني، بل كان انتقالًا إلى حالةٍ نفسيةٍ مختلفة.

وإذا لم يتحقق للشاعر ما كان يتمناه في المقطع السابق، وهو اللقاء بوالده، فقد تحققت له أمنيةٌ أخرى في رحلته إلى عالم البكاء والدموع التي "لها وظيفة نفسية في الترويح عن النفس وإخراج الشحنة العاطفية الكامنة، وهي تطهر النفس من الرواسب العاطيفة التي تؤلمها وتؤرقها"، فالبكاء ليس فقط عبورًا إلى الحزن، بل هو أيضًا مفتاحٌ للشفاء والتعافي، ولعل كلمة (البقية) التي ذكرها في قوله: "لعل بسفر الخالدين بقية"، هي المعادل الموضوعي لبعض تعافيه، حيث تحول من حالة الضعف واليأس إلى قوةٍ جديدة، تمكنه من الوقوف بصلابة أمام تحديات الحياة، والاهتمام بأنبائه الذين يعانون أيضا من فقدان جدهم.

وفي البيت الأخير، يعبر عن عمق تضحياته وإنسانيته، حيث يداوي جراح الآخرين وهو غير قادرٍ على مداواة جرحه الوحيد الذي يساوي آلاف الجراح ،وهذا يعكس لنا إيثاره وتفانيه في خدمة الآخرين رغم معاناته الداخلية، ونلاحظ كيف يصف جرحه بـ"الأبدي"، ليشير إلى أن موت الأب أمرٌ لايمكن نسيانه، ويبقى وجعه مرافقاً للإنسان طوال حياته.

## المبحث الثاني:

## رثاء ابن العم

ويدخل في رثاء الأهل والأقارب رثاءُ أبناء الأعمام، وهم بمثابة الأخوة الأشقاءُ في القرابة، وكثيرا ما نجد الشعراء يحرصون على رثائهم "لما بينهم من صلة الرحم، وهم في هذا الرثاء يعنون بإظهار العاطفة الإنسانية وتمثيل النفس وأشجانها ويُجهدون أنفسهم في التعبير عن مشاعرهم النفسية وإفراغ عواطفهم فيما تفيض به قرائحهم ليكون ذلك عزاءً ومشاركة في مصابهم".

وقد رثى الشاعر ابن عمه وصديقه المسمى جدَّين ولد الحنشي في قصيدة بعنوان "أخي الراحل"، يقول فيها:[الخفيف]

**يا أخي الرَّاحـــــــلَ استثرتَ حَنيني وكثـيرا مِـــــــــــن الوِدادِ الــدفين**

نحنُ أســـــــــــرى لحُزنِنَا نَـتَعزَّى بِسجاياكَ والـــــمقامِ الـــــــــمكين
يـــــومَ كُنَّا بجلّقَ الشام نســـــــعى بيننَـــــا بالنُّـــــــهَى ومجدٍ مَصُون
تصنعُ الخيرَ بـــــاســـــمًا أريـــحيًّا واثـــــــقَ العزمِ يَعْرُبِيَّ العريـــــــن
رحـمَ الله مَـــــن إذا خَـــــيَّـمَ اللـيـ ـــلُ أتـــــــى بالضِّيَا وفتحٍ مـــبـــين
قـــــــــد خسرناكَ فالتلاقي انصرامٌ والـــــمُنى عزَّ في الزمـان الـــخؤون

الشاعر –كعادته– يستهل هذه القصيدة بجملة "يا أخي الراحل" التي اتخذها عنوانا، وهي "تحرّضُ على فهم القصيدة والوقوف عندها بعناية، لأنها واضحةُ القصدية، تتناسق مع موضوع النص وفيها حركية انفعالية، وقد استعان فيها الشاعر بأسلوب النداء لقرب الراحل من نفسه روحا، ومن خلال قوله "استثرت حنيني" يؤكد لنا أن الراحل لم يرحل، ومشهد موته يدمي القلوب، ويهز النفوس، ويقض المضاجع، لا يفارق مخيلته ولا يغيب عن ذاكرته".

وفي البيت الثاني والثالث والرابع يصورُ لنا حزنه الشديد، ويعظم فاجعته من خلال ألفاظ يتبادرُ إلى ذهن من يسمعها أن مصيبةً كبيرة أتت على كل شيء، ولم تُبق بعدها ذكرا ولا أثرا مثل "غرقى" "اضطراب" "حسرة" "شجون" "أسرى" ويؤكد ذلك باستخدم صيغةَ الجمع في بعضها، مستذكرًا تلك الأيام الجميلة التي قضاها في الشام مع ابن عمه الراحل، والتي ستظل محفورة في مجيلته، وهي تُذكره دائما بالخطب الأدهى والأمرِّ الذي حل به بعد وفاته.

وفي زاوية من زوايا الذكريات، يستذكر بلعمش جانبًا من حياة الراحل، ويحتفي بصفاته النبيلة، وحسناته المشرقة وعزيمة الصلبة واعتزازه بعروبته ومساعدته للمحتاجين، ثم يهول من خطبه مرة أخرى بهذه الجملة العميقة، "قد خسرناك" ليؤكد ألمه وحزنه العميق لفقدانِ جَدَّيْنِ، مشيرًا إلى الفراغ الذي تركه في قلوب الناس، مما يبرز عظمته مكانته وتأثيره في الحياة، ويتمنى لو تسمح له الأيام بمقابلته مجددا، لكنه يقطع هذا التمني بقوله "والمنى عز"، مشيرًا إلى استحالة هذا اللقاء، فهو"يسلم كل ما يجري في هذه المعمورة للقدر الذي يلعب بالإنسان ويسخر منه، إذ يسمو به حينًا، ويحطه حينًا آخر".

وفي أبيات أخرى يتحدث عن مناقب ابن عمه حيث يقول: [الخفيف]

يـــا مُحَـيَّا كبسمةِ الفجـرِ سَـمْـحًـا وابتسامًا كاللؤلؤِ الـــــــمكنـــون
يا سَمِيَّ الجُدودِ يا حُرقةً فـي الـقلـ ـــب تبقَى على امتدادِ السنـــــين
يا حنانًا عـلى الغريبِ وعَطْفًـــــــا بـــــا بَـذولا لـــــــكل غالٍ ثمين
يا أخًا فاضلًا ترجَّـــــلَ هل لـــــي غيـــــرُ وَجْدٍ ولهْفـــةٍ وأنـــــينِ؟
نحنُ من بعدكَ احـتَرقْنَا هُيامـــــــا وأفَقْـــــنا عـــــلى صباحٍ ضَنِين
وذرفْنَا عليكَ أمـــــطـــــارَ دمـــــعٍ ورثـــــيناكَ بالقصيدِ الحزيـــــــن
كل أعْماقـــــــنا بكـــــــتكَ وتُهنا أَسَفًا فـــــي الـدروبِ دون يـــــقينِ

أول ما يستوقفنا في هذه الأبيات هو النداءاتُ المتتالية المشحونةِ بالمشاعر الصادقة والمعاني الإنسانية وهي "يا محيا كبسمة الفجر"، "يا سمى الجدود"، يا حرقة في القلب، "يا حنانا على الغريب"، "يا بذولا"، "يا أخا فاضلا"، وكلها تجسِّدُ لنا عظمة المرثي ومكانته الرفيعة بين ذويه، وربما أراد بلعمش من خلالها "أن يقدم رؤيته الخاصة تجاه الموت الذي يجب على الناس أن يعتبروا به؛ ذلك أن الإنسان مها بلغ من مراتب في هذه الدنيا، فإن هادمَ اللذات آتٍ لا محالة؛ لذا على الإنسان الخضوع والتذلل".

وفي قوله "يا حرقةً في القلب"، يُجسِّد لنا الألم الشديد الذي يشعر به، ويستخدم لفظ "القلب"؛ لأنه مركز العواطف والمشاعر، ثم يُبين أن حزنه على المرثي باقٍ معه على مدى السنوات، مما يدل على عظمة الفاجعة التي أصابته وعلى مكانة ابن عمه في قلبه

وفي خضم الإحساس المؤلم، تخيِّمُ الغربةُ على بلعمش فيقول يا "حنانا على الغريب"، وهكذا هو ديدنُ شاعر الرثاء، فهو يشعر"بالوحدة، وقد تتسع المساحة وتتعدد الأماكن، ولكن الغربة تظل ملازمة له؛ لأن الموت قد فرضها على ذات الشاعر وأسقطها على ما حوله".

ويتضمن النداء في قوله "يا أخا فاضلا" عنصرًا عاطفيًا بالغ الأهمية، ينقل فيه شوقه العارم للعودة إلى لحظات الوفاء والتواصل مع هذا الشخص الذي ارتبطت به ذكرياته الجميلة وأحلامه الطيبة، وتنطوي كلمة "فاضلا" على معنى النبل والجود والتفاني، مما يضيف إلى النداء طابعًا من الاحترام العميق والتقدير الصادق.

وفي لحظات الحزن العميق، لم يجد الشاعر مَلْجَأً سوى سكبِ الدموع وترجمة مشاعره إلى قصيدة رثاء ينسجها لابن عمه الراحل "الذي كان يمثِّلُ له تكثيفًا لمعاني الوجود، ولذلك بدا له هذا الفقدُ حدثا استثنائيًّا لا ينتمي إلى حدث الفقد المتكرر على مدى الأيام والدهور"، فقصيدةُ الرثاء الحزينة التي كتبها والتي أفصحَ عنها بقوله "قد رثيْناكَ بالقصيد الحزين"، "تهدفُ إلى إفراغِ النفس من لواعجَ لا شفاء لها منها إلا بالبكاء على الراحل، وتعداد مناقبه، وهذا ما فعله الشاعر هنا، ولا نستعبدُ أن ينبع بعضُ الرثاء من إحساس الشّاعر بالضّعف أمام الموت والعجز عن مغالبته، فكأنه حينما يحزن على الفقيد يحزن على نفسه؛ إذ يشعرُ على نحوٍ ما أنَّ موتَ غيره نذيرٌ بموته، وكلما كان الفقيد أقربَ إلى الفاقد كان إحساسه بالخسارة أشدّ".

ويختم هذه القصيدة بالدعاء له قائلا: [الخفيف]

**رحـــــمة الله يـــــا أخِـي وحـبـيبي وابـــــنَ عـــــمِّي وســـاعدي ويميني**

**رحمةُ الله يـــا فتى الحيِّ يـــــا مَنْ كُنتَ في النـــــــاس مهجتي وعيوني**

**رحمـــــــاتٌ عَليكَ تهطلُ تتـــــــرا من غفورٍ للمحســـــــــنيـــــن مُعينِ**

**وصـــــــلاةً عـــلى النبي دوامًـــــا وسلامٌ علـــــــــــــيه طولَ القرون**

يلاحظ في هذه المقطوعة استمرار الشاعر في استخدام أسلوب النداء متمثلا في جملٍ مثل "يا أخي"، يا حبيبي"، "وابن عمي"، التي تعكسُ القرب الشديد بينهما، "وساعدِي"، "ويميني" التي تدل على الاعتماد المتبدل، و"يا فتى الحي" التي تجسد القوة والحماس، والقيام بالمهام، وكلها تجعلُ القارئ يشعر بقوة الروابط الروحية التي تجمع بينهما، ونلاحظ أن هذه الجمل مسبوقة بجملة "رحمة الله"، مما يؤكد لنا رغبة بلعمش الشديدة في أن تنزل الرحمة على ابن عمه فيتمتع بالراحة والسكينة في حياة الآخرة.

ولعنا نقول إن مجيئ لفظ الرحمات جمعا في البيت الثالث يوحي بأن الشاعر يطلب الرحمة لأرواح متعددة، وأشخاصٍ كثيرين، من بينهم أخوه وحبيبه وابن عمه وهكذا، وفي ذلك من المبالغة في طلب الرحمة ما يدل على وفائه الخالص تجاه المرثي، ويضفي على قصيدته لمسات من الجمال والعمق، تبرز تفاصيل العلاقات الإنسانية والروابط الروحية التي تتجاوزُ كل الحدود.

وفي قصيدة أخرى بعنوان "أسالمة إلى مولاكِ ربي" يرثي بنت عمه السيدة الفاضلة بنت الهاشم حين يقول في مطلعها:[الوافر]

**سلمتِ من المآثم والعيوبِ فسالمةٌ إلى مولاكِ أوبي**

**وللروح الحياةَ وهبتِ صدقًا فلا يخفَى الصدوقُ من الكذوبِ**

المطالعُ للشطر الأول من البيت الأول يجدُ نفسَهُ مُجَلَّلًا بسحابة كثيفة من الحيرة والتردد، ويتأرجح اختيارُه–كالسفينة المضطربة–بين بريق المديح وأوجاع الرثاء، وما إن ينتقلُ إلى الشطر الثاني حتى يهتدي إلى غرض الشاعر، فكأنه أي الشطر الثاني البوصلة التي تلوح في أفق القارئ، ومن خلالها يدرك أنه ماضٍ إلى طريق يتَّشحُ بظلال الأسى نتيجة وفاة ابنة عم الشاعر.

وفي البيت الثاني، يتأملها وهي تتركُ الدنيا الفانية فيخاطبها "وللروح الحياة وهبتِ صدقا" وكأنه بذلك يشير إلى أن موتها بمثابة غروب الليل الذي يبشر ببزوغ يوم جديد، فهي بموتها تبدأ رحلة الخلود،"فليست الحياة فناء كما تبدو في آخرها، ولكنها في حقيقتها انتقال من عالم عمل إلى عالم جزاء،وليس الموت نهاية حزينةً، ولكنه صورة من النوم يستريح الجسمُ فيها من تعب الحياة وأعبائها بعد ما طال سهره وسهاده فيها".

وفي قوله "فلا يخفى الصدوق من الكذوبُ" يجعل من الصدوق والكذوب معادلًا موضوعيا للحياة الدنيا والآخرة ليوكد لنا أن ابنة عمه اختارتِ الخيار الأنسب حين آثرت الموت على الحياة، ونشتشف من ذلك ثنائية الحضور والغياب التي تُسهم في "تحريك النص وملئِه بالشحنات العاطفية في حضرة الموت تارة وفي حضرة الحياة تارة أخرى، وقد ساعدت أيضا على توجيه النص توجيها حركيًّا يتعلق فيه الحاضر بالغائب مما يحفز القارئ الواعي بما يمتلكهُ من دقة مهارية وفنية عالية ليختار الأفضل بين الأمرين".

وفي أبيات أخرى يصف لنا مشهد احتضارها حين يقول: [الوافر]

**ذكرتِ الله واثقةً بنور تمكَّنَ مِن سُويداءِ القلوب**

**أكان الدمعُ منهمرًا سخينًا حنينَ الشمس تزحفُ للغروب**

**لئن تكن الجسومُ إلى سكونٍ فأنسامُ الشهود إلى هُبوبِ**

**يقال مزارها أضحى بعيدًا ورحلتها إلى المولى القريب**

**كأن دمـــــوعها شوقًا إليـــــــه دمـــــوع العائديـــــن إلى الحبيب**

تعكس لنا هذه المقطوعة مشهد اختضارِ ابنةِ عمِّهِ، فحين قررت الحياةُ أن تنتزع روحَها من جسدها الرقيق، تجلى على محياهَا بريقُ الوُجدانِ والتواصل مع السماء، فتذكَّرَتِ الله بقلبٍ مؤمن وانهمرت من عيونها دموعٌ شفَّافةٌ، ففاضت روحها إلى الله وهي تشتاقُ إلى لقائه، وهذَا الذي صوره بلعمش "يسمَّى بتسجيلِ الحالةِ حيث يلجأ الشاعر في رثائه إلى تصويرِ الاحتضار بأسلوب قصصي مثير ينقل لنا معاناته وتتابع ألمه إزاء تلك المواقف".

وقد أجاد في اختيار اسم المولى "القريب"، ليشير إلى عمق الروحانية والتواصل الدائم بين العبد وربه، حتى في أصعب اللحظات، مما يعكس لنا رؤيته الفلسفية والدينية تجاه الحياة والموت، ويزيد من جمالية النص وعمقه المعنوي.

وفي أبيات آخرى يصفُ لنا جزع الناس عليها ويعزي حين يقول: [الوافر]

**فـــــمَا جزعُ الذين إذا نـعوْهَـــــا؟! ومـــا لِـــتَجَهُّـــمِ الحـــرف القشيبِ؟!**

**أخي الشـــــــيخانِ حَظُّـكِ مِن شَذَاها بأنـــــكَ وردة الغصن الرطيـــــــب**

**ومُتِّـــــبِّعُ بإحـــــــــــسانٍ خُطَاهَا فلا قدمٌ تزِلُّ إلـــــــى الـــــــقليب**

**وأورثـــــكَ الجدودُ لسانَ صِـــــــدقٍ فـــلســـتُ عنِ الـــمكارم بـــــالغريبِ**

**أتعزيةٌ وأنـــــتَ بِـــــها الـــــمُعزِّي؟ ومَـــنْ كَفَتَّى لَدَى البلـــــــــوى أريب!**

في البيت الأول، يتساءل الشاعر بدهشة وإعجاب عن ردة فعل أهالي الفقيدة الذين نعوها، ويعبر عن استيائه من كلماتهم الحزينة، ونلاحظ أنه يريد أن يعزيهم ويدعوهم إلى الصبر والرضاء بقضاء الله، فذلك سبيلٌ لتخفيف الألم والحزن، مما يبعدهم عن كلمات الويل التي تزيد من فداحة خطبهم، فهو يشجعهم على مواجهة المصيبة بإيمان وصبر؛ لأن فيهما السلوى والراحة، والعونَ على تجاوز المحنة بروح مطمئنة ومستكينة.

وفي البيت الثاني، يُطلق على ابنها الشيخان لفظ الأخ رغم أنه بمثابة ابن له، مما يدل على العلاقة الطيبة بينه وبين أفراد عائلته الكبيرة، بل وتقديره لأفراد هذه العائلة،"فهو مسؤول روحيٌّ ونموذج للإنسان

المتعلق بالمبادئ لا يتبدل في هذه العلاقات حيث تتجلى طبيعة الإنسان في سموها ورفعتها وعندها فقط تكون الحياة راضية وطيبة" .

ويعلل طلبه "لاتجزع عليها" بقوله "فحظك من شذاها" مشيرا بكلمة الشذى إلى فضائل هذه المرأة الفقيدة التي تتميز بنقاء القلب وجمال الروح، إنها تنبعث من راحة العطر والنقاء، وتمتد أياديها البيضاء إلى أهاليها والناس المحيطين بها، ولذلك فهي في غنًى عن البكاء والجزع عليها.

وفي قوله "ومتَّبِعٌ بإحسان خطاها" تتجلى دعوتُه الناسَ للسير على خُطاها الحسنة، واتّباع آثارها النبيلة، بدلاً من الغرق في أحزانهم وترديد الكلمات الحزينة، مُعَلِّلًا ذلك بقوله "فلا قدمٌ تزل إلى القليبِ" ليشير إلى أن هذه المرأة الفاضلة على الرغم من رحيلها، إلا أن آثارها الطيبةَ ما زالت حاضرةً، وهي مصدر إلهام وتوجيه لكل من يسعى للارتقاء بحياته نحو الأفضل.

ويختم هذه القصيدة بقوله: [الوافر]

**تــقاسمنا الـــــمَحبةَ مُذْ خُلقنا ونقـــسمُ أدمُعَ الزمـــنِ الكئيب**

**عسى الرحمـــن يُـــبدلكم سُرورا ويُدخلكـــــم حِمـــاه من الكروب**

**ويُسكنهـــــا جِنان الـــخلد فضلًا وحـــسبكُ بالمهيمن مـــن مجيب**

**سأجـأرُ باسمه طـــــلبًا لحاجي فيا نفسُ ارعوي حَـــــذَرا وتوبي**

**وصلي أكملَ الصلوات طـــــيبا على الهادي ويا لكَ مـــن طيوب**

يستمر الشاعرُ في تعزية أهالي الفقيدة ويرسم لنا طبيعة العلاقة بينه وبينهم من خلال قوله "تقاسمنا المحبة" حين كانوا ينتازعون كؤوس الفرح والسعادة، ثم ينتقل إلى قوله "ونقسم أدمعَ الزمن الكئيب" لؤكد وقوفه إلى جانبهم في أيام المحن؛ وبهذه الكلمات يُبرز أنه ليس كالآخرين الذين يظهرون في أيام الفرح ويختفون في أوقات الحزن، بل هو إنسان صادق وإنساني، يشارك الآخرين في أفراحهم وأحزانهم على حد سواء.

وينتقل من التعزية إلى "الدعاء لتَنسبكَ القصيدةُ في وحدة شعورية متتابعة"، ونلاحظ كيف يختارُ اسم الله المهيمِن الذي ينبثقُ من إيمانه "المطلق بمشيئة الله وإرادته التي تبدو في النص متَّصلة بالهيمنة المطلقة والقهر المسيطر"، فهو يعلم أن دعاءه المتمثل في قوله "يبدِلكم" و"يدخلكم" و"يسكنها" لن يتم إلا بإرادة المولى

عز وجل.

وفي قوله "ويسكنها جنان الخلد فضلا"، تتجلى رؤيته الإسلامية السامية القائمة على أن الجنة لن يدخلها أحد إلا بفضل الله كما دلت على ذلك النصوص الشرعية، فكلمة "فضلا" هنا تشكل لوحة فنية من الرحمة الإلهية، تجعلنا نرتقب عظمة الله وسخاءه الذي لا حدود له.

وفي قوله "فيا نفسُ ارعوي حذرا وتوبي" يأتي خطابه مليئا بالخشية والتضرع، فهو يحذر نفسه ويدعوها إلى التوبة والاتعاظ بموت ابنة عمه، وبذلك يسري على منوال الشعراء الذين "كلما ندبوا أهاليهم وذويهم وأبكوا الناس على الراحلين، ندبوا أنفسهم حين أدركوا أن الرحيل قريب، وأن المنية تطرق أبوابهم، وأن مصيرهم إلى حفرة مظلمة يشيّعهم إليها الأهل والأحباب، وتأتي أناتهم حائرة شجيَّةً حين يذكرون ذنوبهم فيخافون ربهم ويشفقون من لقائه".

لقد رسم لنا الشاعر – من خلال ما سبق– كيف أن ابنة عمه "تودع الحياة راضية، وتستقبل الموت مطمئنة، فهي مؤمنة بضرورة الموت وانتظارها الرحمةَ والغفران ونوال الجنة، وبهذا تكون قد رثت نفسها قبل موتها، ولعل ذلك ما جعل قصيدته تتسم بالرزانة والهدوء والسكينة وضعف العاطفة" .

**الخاتمة:**

وقد رأينا من خلال العرض الذي قدمناه كيف برزت لنا ملامح شعر الرثاء العائليّ في شعر الشيخ بلعمش، ومن الملاحظ أنه لم يُرقِ الكثيرَ من المداد في هذا اللون من الرثاء، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة موت الأقارب الذي يتخذ منحىً خاصًا، فهو ليس مجرد فقدان شخص فارق الحياة، بل هو تجربة عميقة تندرج تحت مظلة الوجع الأعمق، ويكاد الصمت يتخذ موطئ قدمه في الصفحات، بسبب فداحة الخطب وجلال المشهد الذي يصعب التعبير عنه، ومن هنا اكتفى الشاعرُ بالمشاهدة من بعيد، وهذا أكثرُ إيلامًا له، وأوجع من لغة الكلمات.

وقد لاحظنا على القصائد التي حللناها أنها "لم تعبر عن نفس مجروحة قد قدَّها الهم وضعضعها الحزن، وأن صاحبها لجزعٌ أشد الجزع، ملتاع أعظم الالتياع"، اللهم إلا في بعض المواضع، فقد ركز فيها على الحديث عن مناقب أقاربه، ولعل السبب في ذلك يعود إلى رؤيته الفنية والثقافية تجاه فن الرثاء، حيث

يُعدُّ الرثاء في بعض الثقافات والتقاليد فنًا يهدفُ إلى تكريم وتمجيد الفقيد مع ذكر محاسنه ومناقبه، بدلاً من التركيز الشديد على الحزن والألم، لذلك آثرَ التركيز على الجوانب الإيجابية لأفراد أهله وأقاربه نتيجة العلاقة الطيبة بينه وبينهم، فهو يريد أن يخلِّد ذكراهم بالطريقة الأكثر إيجابية، ومهما يكن السبب، فإن هذا المنهج يعدُّ لفتةً إبداعية من جانب شاعرنا، تترك انطباعًا إيجابيًا على القارئ، وتجعله يتأمل في جمال الماضي والعلاقات العائلية العميقة، بدلًا من الانغماس في بحر من الحزن والبكاء.

**الهوامش:**